

الذوق الفني عند إدموند بيرك

لم يكن بيرك فيلسوفاً بالمعنى الاصطلاحي لهذه الكلمة ، ولكنه كان خطيباً ومفكراً سياسياً من طراز رفيع . ولقد غلبت عليه صفته الخطابية السياسية حتى أوشك المؤرخون ألا يذكروا له سوى كتبه في السياسة ، ومواقفه في البرلمان ، وهو يتدفق بلاغة ، ويهاجم الحكومة الإنجليزية في سياستها إزاء الهند ، وإزاء الثورة الفرنسية ، وإزاء المستعمرات البريطانية في نصف العالم الغربي ، تلك المستعمرات التي هبت في وجه بريطانيا فيما بعد ، وأصبح منها ما يعرف الآن بالولايات المتحدة الأمريكية .

هم يذكرون له تلك المواقف ويعرضون للمجلدات الضخمة التي خلفها بيرك ذخيرة للنثر الإنجليزي ، ولكنهم قلما يذكرون هذا البحث الفريد الذي كتبه في إبان شبابه ، والذي وضع به أساس فلسفة الجمال في تاريخ الفكر الإنجليزي ، والذي قنن به عملاق الفلسفة الحديثة إيمانويل كانت ، فهم بأن يترجمه إلى الألمانية لولا أنه أطل التفكير حتى واقته المنية قبل أن يخرج عزمه من حيز القول إلى حيز الفعل .

ولقد كتب بيرك هذا البحث وهو في هدأة من هدآت النفس التي تتجنىح فيها إلى التأمل ، وتعرض فيها للمدركات الحسية ، وتحاول أن تستقرى منها قوانين عامة تفسر بها ظاهرة من ظواهر الوجود . كتبه وهو يتنفس الجوال العقلي الإنجليزي المتوارث الذي ينفر نفوراً شديداً من المنطق النظري ، ويعرض ما استطاع عما وراء الطبيعة ، ويجعل من المادة وانعكاساتها الذهنية مجال البحث والتفكير .

إن من الناس من ينكر وجود ذوق عام ، ويقرر أن الذوق مسألة شخصية نسبية ، وأن ليس لها ضابط ولا معيار . ومنهم من يذهب مع القائلين بأن الذوق العام موجود ، ولكنه شيء ليس في الكتب ، أي هو شيء يمكن إدراكه

بالممارسة والاختبار . فما هو الذوق ؟ وما أصوله فى النفس البشرية ؟ وما هى عناصره وضوابطه العقلية التجريبية ؟ . . .

إن الذوق هو الملكة العقلية التى تحكم بها على قيم الفنون الجميلة ومنتجات الخيال . وهذه الملكة العقلية تعود بجذورها إلى الحواس التى ندرك بها ما يحيط بنا من العالم الخارجى ، والتى هى السبيل الوحيد عند بيرك وعند عامة المفكرين الإنجليز ، للمعرفة الإنسانية .

الحواس إذن هى أساس الذوق الفنى . ونحن إذا تأملنا هذه الحواس وجدنا تكوينها العضوى يكاد يكون متماثلاً عند الناس كافة ، ومن ثم كان إدراكها للمحسّات يكاد يكون متماثلاً ، فالناس يتفقون على أن هذا نور وذلك ظلام ، وأن هذا حلو وذلك مر ، وقل مثل ذلك فى الضخم والهزيل ، والصلب واللين ، والساخن والبارد .

وإذا كان تأثر الحواس متقارباً فكل ما ينتج عنه من ألم ولذة متقارب كذلك . وإنك لترى البشر يتفقون على أن الصاب مر وأن الشهد حلو ، ولا يختلفون على ما تحدثه هذه المؤثرات فى الحسية من لذة وألم ، بل إنهم يجمعون على وصف الحلاوة بأنها لاذة والمرارة بأنها كريهة . نعم ، إن هناك أسباباً كثيرة تسبب انحرافاً عن استجابة المطعومات الطبيعية اللاذة والإقبال على مذوقات كريهة بذاتها ؛ فقد يفضل امرؤ بحكم العادة طعم التبغ على طعم السكر ، ونكهة الخل على نكهة اللبن ، ولكن هذا لا يغير الحكم على الصفتين الأصليتين لهذين المطعومين ما دام هذا المرء يحس أن التبغ ليس حلوّاً ، وما دام يعلم أن العادة وحدها هى التى مهدت الذوق لتلك المذات الدخيلة . وإنك لن تجد امرأ يقول إن للتبغ طعم السكر ، أو أنه لا يستطيع التمييز بين الخل واللبن ، أو أن للتبغ والخل حلاوة وأن اللبن مر والسكر حامض . ولقد يصف لك صديق فاكهة جديدة فلا يقول لك : إن لها شذاً كأريج التبغ ، أو يصف لك زهرة نادرة فلا يقول : إن لها عطراً كعبير الثوم ؛ لأنه يعلم أن استجابة التبغ والثوم إنما هى لذة شاذة أو مكتسبة . ولقد نتج عن الخلط بين المذات السليقة والمذات المكتسبة أن قال أناس بأن الذوق ليس له ضابط ولا معيار . والواقع أن الذوق يصعب وضع قاعدة له عند إصدار الأحكام الدقيقة على مدركات الحواس ، أى إن الإنسان لا يستطيع أن يجيب إجابة دقيقة صحيحة عن أثر مطعوم ما فى ذوق شخص معين ،

ولكننا نستطيع ولا ريب أن نناقش الأشياء اللذذة بطبيعتها والأشياء المنفرة للحواس بطبيعتها ، ونستطيع أن نميز بينها وبين ما ينتج اللذة الشاذة أو المكتسبة إذا بحثنا عن العادات والتغرضات والتوقعات التي ألفت بصاحبها .

وكما يتفق الناس في المدركات المطعومة يتفقون في تذوق مدركات البصر ، فإن لذة الضوء أبلغ من لذة الظلام ، وإن الربيع المزهر المشرق ليبعث في نفس الناظر نشاطاً وأريجاً لا يجدهما في الشتاء العبوس ، وإنك لتعرض حيواناً أو طائراً أو نباتاً على قوم كثير فيجمعون على استحسانه أو على استقباحه ، ولو أنهم قد يختلفون في درجة ذلك الاستحسان وهذا الاستقباح .

وعلى هذا الاستقراء نرى الأساس واحداً في لذة الحواس ، جميعاً فننتقل من مرحلة الحواس إلى مرحلة الخيال .

إن للعقل الانساني قوة فعالة تحتفظ بصور المحسوسات في الذهن على نفس النسق والترتيب الذي وصلت به إلى الذهن عن طريق الحواس ، أو هر كيب هذه الصور على هيئة جديدة ونسق جديد ، وهذه القوة تسمى الخيال ، وهي عاجزة كل العجز عن الابتكار المطلق والاستحداث من العدم ، وكل قدرتها أن تنوع وتنسق ما تتسلمه من الحواس .

والخيال هو مراح اللذة الفسيح ، وميدان الآلام والخاوف ، ومشوى جميع ما يتصل باللذة والألم من عواطف . وما دامت اللذة الخيالية تحدث من صور المدركات اللذذة ، والألم الخيالي يحدث من صور المدركات المؤلمة ، فإن كل مؤثر طبيعي خارجي يؤثر في أخيلة الناس أثراً متقارباً أو متشابهاً ، على نفس القاعدة التي تلتذ بها الحواس أو تتألم من المؤثرات الخارجية . وينتج من هذا أن هناك اتفاقاً أو تقارباً في الأخيلة البشرية يساوق اتفاق الناس أو تقاربهم في الاحساس . واللذة والألم الخياليان إما أن يكون سببهما مؤثراً طبيعياً خارجياً أو إدراك الشبه بين صرة خيالية وصورة حقيقية واقعية ، وليس للخيال مصدر لاذ أو مؤلم سوى هذين ، وهما يوجدان على درجة متقاربة عند البشر جميعاً . وقد لاحظ لوك أن سرعة البديهة ، وهي خاصية خيالية ، تنتج من القدرة على تتبع وجوه الشبه ، وأن النقد العقلي يعتمد أكثر ما يعتمد على تعرف المفارقات ومواطن الخلاف . واستدل على ذلك بأنك قد ترى شيئين مختلفين ، فلا يتأثر خيالك لأن الاختلاف بين الأشياء هو عين ما تتوقع . أما إذا رأيت شيئين متشابهين فقد

يأخذك الاهتمام ويتمشى إليك السرور . والخيال يحنج بطبعه لجمع التشابهات لأن في جمعها إضافة وثروة ونماء ، أما مراقبة الفروق فليس فيها تحديد ولا إضافة . ولكنها عمل مضجر متعب ، إن أتمر لذة فهي لذة سلبية عوجاء . ولما كانت اللذة أو الألم الخياليان الناتجان عن المؤثرات الخارجية في الحواس وعن إدراك الشبه بين الصور الخيالية والصور الواقعية ، لما كانت تلك اللذة وهذا الألم عملية سلبية ؛ طبيعية فأننا نرى الشعوب البدائية الفطيرة تميز على غيرها في التشبيهات وتأق منها بالمعجب المطرب على رغم عجزها عن تمييز الأفكار وتنسيقها ، ونرى شعراءهم لا يعنون بالحقائق بل تأخذهم المائلة العامة بين الأشياء في رسموها بألوان صارخة زاهية .

وإذا كانت لذة إدراك المشابهة هي أهم ما يسترعى الخيال فإن أكثر الناس إذن يتساوون في هذا المجال ، ولا يفرق بينهم إلا وفرة نصيب بعضهم من إدراك التماثل والمشابهة ، وهذا أمر يتفاوت بتفاوت التجربة والملاحظة . ومن هذا التفاوت ينتج ما يسميه بعض المفكرين تنافراً في الأذواق ولا تنافر هناك . إن الرجل الساذج يبهج ويبهت إذا رأى أى تمثال لإنسان ، لا لشيء إلا لأنه يرى شيئاً شبيهاً بالبشر ، وهو يستغرق في هذه المشابهة حتى إنه لا يتنبه إلى ما قد يكون بالتمثال من قصور . فاذا تعلم ذلك الرجل وزادت تجربته ورأى ذلك التمثال بعينه فانه قد يزدريه ويعجب بتمثال أدق من الأول صنفاً ، فيخيل إلينا أن ذوقه قد تغير ، والواقع أن ما أعجب به في الحاليتين واحد ألا وهو المائلة بين التمثال والإنسان .

ولقد زعموا أن إسكافاً شهد لوحة نابغة تمثل ملكاً على عرشه ، فأعجب بها وتملكه الطرب ، ولكنه أرشد الرسام إلى خطأ في رسم حذاء الملك ، وكان هذا الخطأ قد فات ملاحظة الفنان العبقري ، فلم يكن هذا اتهاماً لذوقه ، وإنما هو مجرد قصور في علمه بصناعة الأحذية . ومن هذا نرى أن هذين الرجلين وإن تفاوتتا في العلم قد اتفقا على لذة ناجمة عن المشابهة بين الصورة والأصل . ولا ريب في أنه يمكننا تقدير الفارق بين لذتيهما إذا علمنا مبلغ تجربة كليهما ، تلك التجربة التي تعين على إدراك المشابهة . وعلى هذا يكون الذوق عاماً في أصله ثم يحدث بعض التفاوت الذي لا يعجزنا أن ندرك مبعثه وأسبابه .

إن الرجل الدارج ليقراً ملحمة شعبية فتتملكه النشوة ولا يفتن لما يصادفه

من الإحالات المنطقية والاساءة إلى الفضيلة وامتهان الحقائق الجغرافية . وليس السبب في هذا الخطأ هو ضعف خياله ، وإنما السبب هو ضعف المعرفة بالمنطق وعلم تقويم البلدان .

إن أصول الذوق واحدة عند الناس جميعاً مادام الذوق من خصوصيات الخيال وليس بينهم من فارق في وسائط التأثير ولا أسبابه . ولكن هناك فارقاً في درجة التأثير ينشأ من سببين جوهريين : تفوق في الحساسية الطبيعية ، أو إمعان في العناية والانتباه . فلو أنك قدمت خواناً من الرخام إلى رجلين فلمساه بأيديهما لأدركا انه ناعم واتفقا على الحكم بنعومته ، فإذا قدمت لها خواناً أكثر نعومة فانهما قد يتفقان على أن الخوانين ناعمان ، ولكنهما قد يختلفان في أيهما أشد نعومة . فالتفاوت في الذوق إذن يبدو حين يصل الأمر إلى الموازنة والمضاهاة ، أى في أمور تتعلق بالكيف أكثر مما تتعلق بالكم . وهنا نتلفت لنبحث عن الحكم الذى يفصل في الأمر عند الاختلاف ، فنجد العقل على أهبة الاستعداد . ويأتى دور الأحكام العقلية بعدم إدراك اللذة الحسية واللذة الخيالية . فإذا أتى دورها انصبت على صلات تلك الذات بعضها ببعض ، وكانت هى الفيصل الذى يقدر الانحرافات التى تعرض لها الذوق العام الذى أوشك أن يعد عند بعض المفكر بن أدواقاً أشتاتاً .

فعلة الذوق الفاسد خلل في الحكم العقلى . وهذا الخلل قد ينجم عن وهن في الفهم والتمييز ، وقد ينشأ عن قصور في الخبرة والممارسة . وعلى الرغم من أن هذه العوامل تنبت خلافاً في الحكم يتناول كل مسائل الفهم والادراك ، فانها لا تدعونا إلى إهدار أصول المنطق ، ومن ثم لا تدعونا إلى إنكار الأصول الذوقية العامة . ولعل الدليل الأكبر على وجود الأصول الذوقية العامة أنك ترى البشر أقرب إجماعاً على استحسان جمال الطبيعة منهم على خطأ الفلسفة الأفلاطونية أو صوابها .

محمد عبد العزيز اسحاق